اختفت أطيافنا

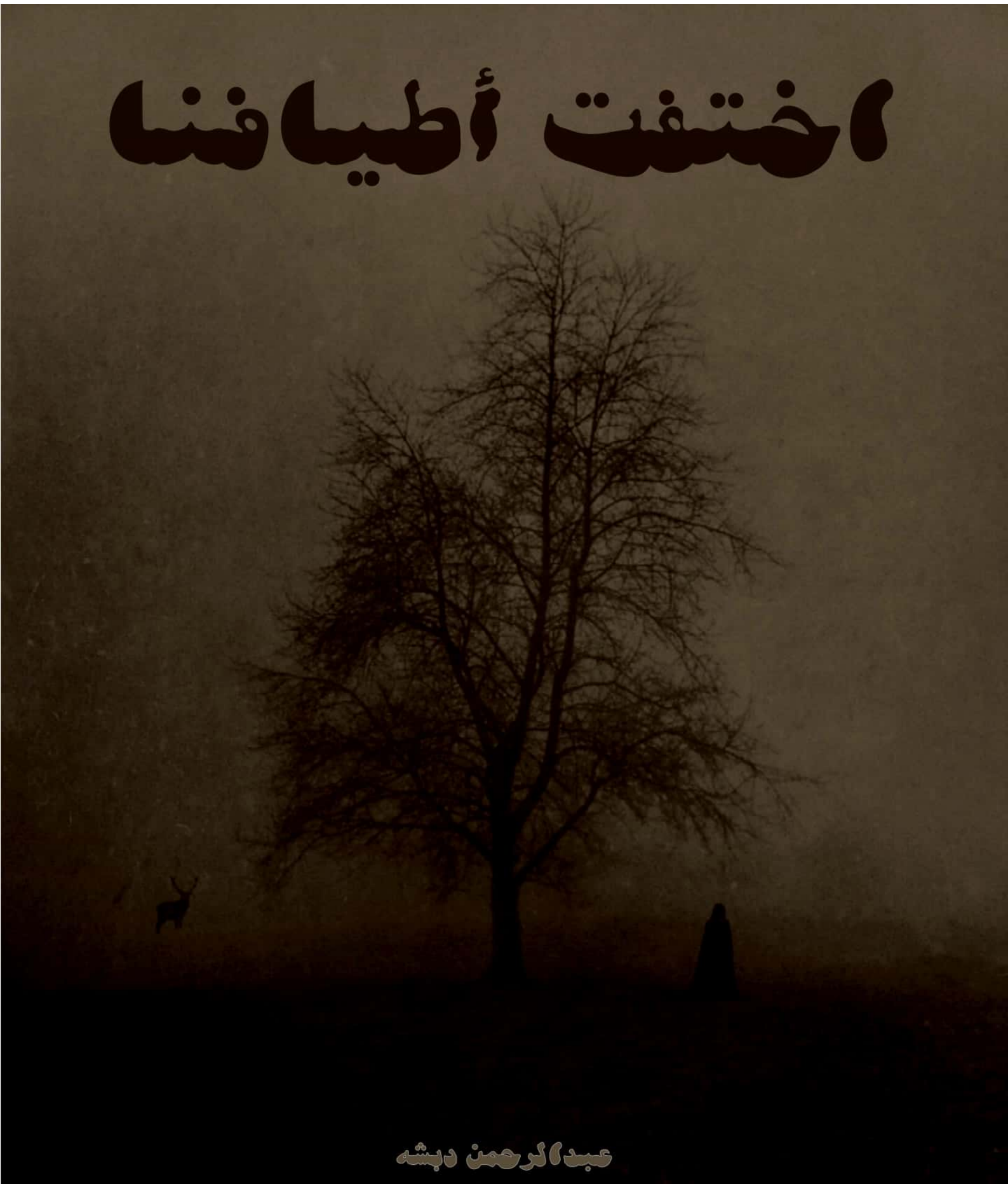

عبدالرحمن دبشه

اختفت أطيافنا

عبدالرحمن دبشه

للمزيد من الكتب على منصة:

kotobati

Instagram:

@abdalrhman_dabsha

@a__dabsha

Facebook:

Abdalrhman Dabsha

A.D
دار جنائن النور للنشر الالكتروني
@janaynalnour
+963 998 571 316

الفهرس:

الحلقة الأولى: بدأت أبتعد
(٧)

الحلقة الثانية: لا أحد سواى
(١٨)

الحلقة الثالثة: لا يرى فقط يسمع
(٢٩)

الحلقة الرابعة: السبب هو الحل
(٤١)

الحلقة الخامسة: الزمكان
(٥٣)

الحلقة السادسة: فوز لكنه خسارة
(٧٠)

الحلقة السابعة والأخيرة: عودتى
(٨٧)

الإهداء:

لاحت جمالاً ينبض نقاءً، كلما ذُكر اسمكِ بين الحروف.

جمعتُ أحرفي، كتبتُ الروايات والقصائد، كلها تحكي عنكِ.

يا من اخترتِ غيري، لم يعرف قيمة تلك الأعين.

نبضي لا يعرف سوى العشق لكِ، ومع هذا الأهداء، قلبي أهديكِ.

عبدالرحمن دبشه

المقدمة:

كل رواية تولد من رحم صفحات بيضاء، وكل مقدمة تبزغ كنجمة في فلك القصص، لكن هذه التي بين أيديكم ليست كأي مقدمة قرأتموها؛ فهي لغز غامض يترنح بين كونه ذروة الأحداث أو مجرد باكورة تشتهي الأفق.

انثروا بذور تفكيركم بين ثنايا هذه السطور، فلكل كلمة رحيقها الخاص ولكل عبارة نكهتها الممتزجة بأحاسيس إنسانية دفينة. هذه الرواية تفتح أبواب عوالم جديدة، تنير أقبية الفهم بخيوط من الحكمة، وتنقش على جدران الروح عبر تلالقي خبرات.

سوف تقطفون من بستانها ثمارًا شهية من المعارف والرؤى، وربما تجدون في طياتها الإنسان الجديد الذي يختلج في دواخلكم. فحافظوا على نضارة قلوبكم وحيوية عقولكم وهمتكم، فلكل جلسة قراءة معها موعد مع التجدد والتحول.

تناغم مع الحكي فإنه من وحي الأماني أو خرافة زمانية، تكتنف سراديبها أسرار مكتومة وأفكار متناسقة بمكر، تنسج من خيوط الواقع والتأمل لوحة فلسفية، مزينة برسائل الحياة ودروسها السامية.

ولكن، قبل أن تغرقوا في تلاطم أمواجها العاتية وفيض أفكارها الصاخبة، دعوني أزف إليكم رسالة لا بأس بها كعطر يمهد الأجواء قبل العزف على وتر المغامرة:

عانقوا من تحبون بكل مسامات الوجود، دعوا إصراركم يكون الصخرة التي تتحطم عليها أمواج العوائق. فإن رسمت الأقدار خطوط فراق عبر صفحاتكم، ارسموا عليها مجدداً بأقلام الوفاء خطوط لقاء. اقتحموا أبواب السماء بحثاً عن من تُحبون فما الحياة إلا فصول من النضال من أجل الحب الذي لا يتكرر في مسرحيات الوجود.

الحلقة الأولى: بدأت أبتعد

أسكن في أحضان عائلة لا ترتضي إلا القمة في هذا المجتمع الذي يتدافع فيه الناس كأمواج البحر، نسعى دوماً لذاك بر الأمان حيث السعادة تنير كنجم لامع في سماء حياتنا، مهما كانت التضحيات.

أنا عمر، ذلك الفتى الذي يبلغ من العمر ثلاثة عشر ربيعاً، يغمس نفسه في أعماق الكتب وصفحات الدراسة، ليس لحب العلم فقط، بل لأرى بريق الفخر يلمع في عيني أمي كلما تسلمت نتائجي وتجدني بين الأوائل؛ تلك الأم التي يملأ قلبها حلمٌ واحد: أن أكون النجم الذي يتلألأ على صدر سماء فصلي الدراسي.

رغم تفوقي وطموحي البعيد للنظر، تصطدم سفينتي دوماً بجبال الوحدة. فأنا لا أجيد فن الابحار بين الأرواح، ولا أتقن لغة القرب من أرواح الآخرين؛ أصدقائي هم من سكان عالمي الخاص، الذي لا يفتح أبوابه إلا لنفس واحدة "سارة."

سارة، رفيقة الدرب وملجأ القلب. هي النور الذي يبدد ظلام الوحدة، ويجعل رحلة الذهاب إلى المدرسة رحلة أتوق لها كل صباح. بيننا صداقة، نعم، ولكنها صداقة مغموسة بلون الحب البريء؛ نعلم كلا منا في قرارة نفسه ما يكنه للآخر من مشاعر دافئة، لكننا ندرك أيضاً أن عمرنا لا يزال يلبس ثوب الطفولة.

في أحد أيام التواصل الروحي الماضية، رسمنا على شاطئ الأحلام عهداً يتخطى حدود الزمان، بأن نجمع شتات أرواحنا تحت سقف واحد عندما نكبر و تنضج أحلامنا وتصبح قادرة على الطيران؛ أن نتشارك حكاية حياة، ونستقبل فجراً جديداً بانبلاج ضياء ابنتنا سمر، سمر التي ستكون شهادة على حبنا في المستقبل و المزيج بيني و بينها،

"أجل سارة و عمر."

مزيجاً موسيقياً يجمع أنغامنا.

في صباح يغمره الضوء ويعبق بنسمات الفرح كما كل يوم، استقبل يوماً جديداً بكل ما أوتيت من براءة وشغف للحياة. التفتت الأنامل الأمومية بعناية لإعداد وجبتي ومصروفي المدرسي وأنا أتنقل بخطواتي المبهجة نحو الحافلة. رحلتي إلى المدرسة تمتد بين ثنايا الطرقات المعكوفة وحراس الطبيعة الأشجار التي ترسم لوحة حية تنبض بألوان الفصول.

ما أن دلفت إلى قاعة الفصل، ذهب بصري في رحلة بحث عن سارة، الصديقة التي تملأ فصول يومي المدرسي بالألوان. وجدتها هناك، كالعادة، تقف عند النافذة حيث تعكس أشعة الشمس لون عيونها العسلية وتمنح شعرها الأشقر ظلا ذهبيًا رائعًا. اقتربت منها، وكان الترحيب صوتها الهادئ الذي قطع سكون الصباح: "كيف حالك يا عمر؟"

"بخير وأنتِ؟"، كان ردي مع ابتسامة صافية تزين محياي.

"بخير أيضاً. هيا لنجلس، هناك الكثير من الألعاب اليوم."

عبقت كلماتها بنسمات الفرح التي أبهجت روحي وتوجهنا إلى مقعدنا نستغل كل ثانية قبل وصول المعلمة ونغمس أنفسنا في عالم الألعاب بعيدًا عن ضجيج الفصل.

ما إن انخرطنا في هذا العالم حتى قاطعتنا المعلمة بدخولها. وفجأة، ومع همسة خفيفة، فاجأتني سارة: "لدي ورقة لك."

"أعطني إياها بالفرصة"، رددت لها، آملاً أن يكون مجرد تأجيل للفضول الذي بدأ يغمرني.

"لا، الآن. ولا أريد منك فتحها إلا عند عودتك للمنزل."

صاحبت كلماتها حالة من الحيرة تسللت إلى ملامحي، وبينما كُنّا نخفت أصواتنا لنسترق السمع لدرس المعلمة، سرقت الورقة كل ذهني.

ومن كلمات التمتمة التي راقصت أذني جاء خبر؛ عن رحلة بالقطار غدًا لمن يود المجيء. على الفور، لمعت عيون سارة بفرح طفولي، وامسكت بكتفي: "سنذهب بالتأكيد يا عمر، إنها رحلة بالقطار ولم أركب القطار قط في حياتي. أريد التجربة!" "بالتأكيد سنذهب." كانت كلمتي وابتسامتي مليئة بالفرحة، كل منا يعبر عن ترقب لذلك اليوم بلهفةٍ وشوق.

كما هو المعتاد، الوقت لا يعني شيئاً عندما يتم قضاؤه بجوار سارة. بين الضحكات العابرة وألعاب الورق التي صنعت من دقائقنا في المدرسة كنزاً لا يفنى، مرت الساعات كوميض برق. ذلك اليوم، مر كباقي أيام السنة الدراسية مع القليل من الشوق ورغبة حارقة ليوم الغد.

عدت إلى منزلنا حيث الحب والدفء يستقبلانني عند الباب بأحضان أمي. "كيف كانت مدرستك اليوم يا عمر؟" ، سألت بعينين يملؤهما الاهتمام والشوق لسماع أحداث يومي.

"بخير يا أمي، جميلة جداً. وهناك شيء أريد أن أخبرك به." شعرت بنبرة الحماس تتسلل إلى صوتي وهي تخبرها عن رحلة الغد بالقطار، التي ستعود بي إلى المنزل في نفس اليوم.

أحست أمي بالقلق لبرهة، لا تحبذ فكرة الرحلات كثيراً. لكني شرحت لها كم كان هذا مهماً بالنسبة لي، وكيف رفضت رفضاً قاطعاً التخلي عنها. بعد قليل من الإصرار وافقت، وبدون أي تردد والدي كذلك، إذ لا يقيمان شيئاً فوق رغباتي وسعادتي.

بينما كان الليل يسدل استاره، أكملت واجباتي المدرسية واستسلمت للإثارة والترقب ليوم الغد. كل دقيقة كانت تمر على صدى عقارب الساعة جعلت النوم يبدو مهمة شاقة. ومع ذلك، أخذني الإرهاق في النهاية إلى عالم الأحلام.

حلمت بفتاة طويلة بثوب أبيض، يغلفها الغموض فلم أستطع التعرف على ملامحها، كأنها حُلم داخل حلم.

يداها كانت ملتفة حول يدي الواحدة وعلى رأسي الأخرى، لكن الحيرة التي رافقت الحلم تلاشت عند استيقاظي وقد اختفى كل شيء في الهواء الرقيق لصباح جديد مع الفضول الخالص لتلك الرحلة المنتظرة.

بسرعة البرق، لبست ملابسي وحملت حقيبتي غادرت نحو الحافلة. وصلت إلى المدرسة حيث كان التسجيل لرحلة القطار يستقبل الطلبة عند الباب. بدون تردد، سلمت المبلغ الذي أعطاني إياه والدي وأدرجت اسمي في قائمة المشاركين.

ولكن بمجرد دخولي إلى المدرسة وتوجهي إلى الفصل، كانت سارة غائبة عن نافذتها المعتادة. جال بصري يمنةً ويسرة بحثاً عن صديقتي حتى وجدتها وهي تضع رأسها على المقعد. أسرعت إليها، دافعي القلق واللهفة قائلاً: "سارة..." عندما رأيتها ترفع رأسها والدموع تتراقص على عيونها العسلية، ضاقت بي الأرض بما رحبت. أمسكت بيدها الصغيرة، متسائلاً بنبرة ملؤها القلق: "ماذا بك يا سارة؟ ماذا حصل؟" ابتسمت لي ابتسامة مشرقة يطغى عليها الحزن، ومع ذلك قالت: "لا شيء يا عمر، لا تقلق، فقط لا يمكنني أن آتي معك إلى الرحلة." تلك الكلمات جثمت على صدري كالصخر، فلم يكن لهذه الرحلة أي معنى بدونها.

"لن أذهب إن لم تذهبي!"، خرجت الكلمات من بين شفاهي دون وعي، إنما هي صدى لمشاعري. ولكن برغم ذلك، أمسكت سارة بيدي برقة، مصرة على أن ليس بيدها حيلة وأنها ستبقى في المدرسة بسبب عدم موافقة والديها على الرحلة. أخبرتني ألا أقلق، فهي ليست حزينة وطلبت مني أن أذهب وعندما أعود أن أروي لها كل تفاصيل الرحلة.

"كيف لستِ حزينة ودموعك تكاد أن تشق قلبي؟"، قلتُ بصوت يملؤه الأسى. أجابت بصوتٍ ناعم: "أنا لست حزينة على الرحلة، أنا حزينة فقط لأن يومي سيكون بدونك."

عنيدة كانت في إصرارها وعنيد كنت في رفضي، لكن في النهاية، أقنعتني. "ستذهب،" قالت بثبات. بعد إصرارها، جاءت المشرفة عن الرحلة تأخذني بينما كنت ما زلت مترددًا، ولكن سارة أوصلتني إلى الباب كي أذهب.

قبل التوجه إلى الحافلة، قبلتها من رأسها في لحظة وداع مؤثرة، ثم ركضت نحو الحافلة. رمقت طلة أخيرة من بعيد، ورأيت ابتسامتها الجميلة تعانق الأفق.

صعدت إلى الحافلة حيث وجدت أجواء متباينة تمامًا. الجميع كان يرقص ويغني، فيما غلفني شعور بالحزن بسبب عدم وجود سارة بجانبي في هذه الرحلة. كل ضحكة وهتاف كان يذكرني بغيابها ويعمق من شعوري بالفقدان، منفصلاً بذهني وقلبي عن البهجة التي أحاطت بي.

عندما وصلنا إلى محطة القطار، للحظة كنت أغرق في الدهشة لمدى جمالها الذي لم أره من قبل. نزلنا من الحافلة وبدأنا في اتباع المشرفة، نحن مجموعة صغيرة من الطلاب، 25 تلميذًا فقط، متجهين لركوب قطار يسع أكثر من 150 راكبًا. كان هناك شيء مميز وفريد في هذا الشعور، مزيج من الإثارة والتوقع.

مع أصوات القطار أثناء الاستعداد للانطلاق، وجد كل منا مقعده، محاولين تشكيل جماعات صغيرة. كنت أشعر بغياب سارة بجانبي، وهذا الشعور كان ثقيلًا على قلبي، كأن شيئًا ما ينقصني.

قطع شرودي صوت صفارة القطار وهو ينطلق. لم أكن مستعدًا للسرعة التي بدأ يكتسبها القطار تدريجيًا. الفضول تحول سريعًا إلى قلق يُرى على وجوه الجميع وأنا بينهم. السرعة تزداد، وبدأت الأضواء في القطار تخفت ثم تعود للإضاءة بشكل متقطع، وهزات القطار تزداد قوة مع كل لحظة، والصرخات تعلو بين الطلاب.

فجأة، شعرنا جميعًا بصدمة قوية، لحظة جعلت كل شيء يتوقف في داخلي، كأن الزمن نفسه قد تجمد. وقبل أن أتمكن من استيعاب ما يحدث، انقطعت خيوط الوعي تمامًا، وانغمرت في ظلام دامس.

في تلك اللحظات، الصمت الذي أعقب الصدمة كان مطبقًا، محيطًا بي من كل جانب. وعندما فقدت وعيي، كان العالم الخارجي بكل أحداثه وزخمه يبدو كأنه أصبح مجرد ذكرى بعيدة.

الحلقة الثانية: لا أحد سواى

مع عودة الوعي، وأنا أحاول تمييز الأصوات والأشكال من حولي، وجدت نفسي في موقف لا يمكنني تفسيره. ألقيت نظرة يائسة حولي لأجد ثلاثة من زملائي لا يزالون غارقين في بحر فقدان الوعي. انزلقت على الأرض باتجاههم وحاولت بكل طاقتي أن أوقظهم، لكن دون فائدة. الحيرة بدأت تتسرب إلى تفكيري، مصاحبة لشعور أن شيئاً غريباً قد حل بي ولكنني لا أملك تفسيرًا واضحًا لما يحدث.

أمسكت بحقيبتي المتناثرة بقربي وزحفت نحو باب القطار، لأجده مفتوحًا. ومع خروجي من ذلك القطار الصامت، عكست خطواتي بطء الزمن الذي يحيط بي، كل شيء في خارج المحطة كان على غير المعتاد.

لا يوجد أحد في الشوارع لأستنجد به، سكون يبعث في النفس الدهشة والريبة.

بدأت أبحث عن أي محل بابه مفتوح قد يكون لا يزال، على أمل إجراء اتصال لطلب المساعدة.

مشيت دون هدف محدد، عقلي منغمس في سيناريوهات لا حصر لها حول ما قد يكون حصل.

توقفت فجأة، ثقل الوضع جعلني أحدق في الفراغ، أفكر. كيف يمكن أن يحدث حادث قطار دون أن يتجمع الناس حوله؟ وكيف لم يتم نقلنا إلى المستشفى؟ تساؤلات بدأت تسرع نبضات قلبي.

نظرت إلى الساعة التي تعلقت على معصمي لأعثر على إجابة قد تزيد الوضع غموضًا الساعة الرابعة عصرًا. الرحلة كانت قد بدأت في الثامنة صباحًا.

لحظة من الصدمة اكتسحتني. "يا الهي، كيف لكل هذا الوقت أن يمر ولا يزال هناك غياب كامل لأي مساعدة؟ وكيف لا يوجد أحد في الطريق في هذا الوقت المعتاد على الحركة؟" سريان الوقت بدون وجود أي أثر للاستجابة الطارئة أو حتى المارة، كلها مؤشرات لغز لم تكتمل أحجيته بعد. أخذ القلق يتربع على عرش أفكاري وأنا أقترب من المحل المفتوح الذي يبيع التسالي. قلبي كان ينبض بقوة مع كل خطوة أقترب بها. للحظة، شعرت بخيط من الأمل يتسلل إلى روحي وأنا أتساءل إذا ما كان هناك من يمكنه مساعدتي. دون تردد، وبنفس الزخم الذي حملني إلى هنا، دخلت المحل مسرعًا.

وقفت هناك، وسط الصمت المطبق الذي يحتل المكان، أمعن النظر يمينًا ويسارًا بحثًا عن أي علامة للحياة، أي صوت يمكن أن يخبرني بأني لست وحيدًا. لكن لا شيء يخترق الهدوء الذي كان يعم المكان. ضاعفت من الصوت معلنًا وجودي وسط الفراغ "هل أحد هنا؟"، لكن كل ما عاد إلي هو صدى صوتي الذي تلاشى سريعًا.

مع ازدياد التوتر داخلي، أمسكت بزجاجة مشروب من على الرف ورميتها على الأرض بعنف، علّ صوتها يثير اهتمام أحدهم للخروج من مكمنه. لكن الصوت العالي الذي انتشر كان وحيدًا كوجودي هنا، لم يثر سوى صدى يتلوه المزيد من السكون. في لحظة من اليأس، صرخت بأعلى صوتي "أنا أسرقك! هيا، اخرج كي تلقي القبض علي!" لكن لا جواب ولا حركة استجابت لندائي.

في نهاية الأمر، بحثت في جيوبي وأخذت بعض النقود، ووضعتها على الطاولة بجانب بقايا الزجاجة المكسورة.

خرجت من المحل، شعور الوحشة يزيد وزنه على كتفي. جلست على ركنة الطريق، دفنت رأسي بين يدي، وفي تلك اللحظة كان الصمت يعظ حواسي.

إذ برسالة تصل هاتفي، وكأنها صحوة مفاجئة ذكرتني بأن التقنية لم تتخلّ عني. أتحسس الهاتف بسرعة وأفتح الرسالة الواردة من مصدر مجهول، وكلماتها غريبة كما شخصية مسلسل خيالي.

كانت الرسالة تقول: "مرحباً عمر، هل تشعر بالوحدة الآن؟ أعلم ذلك، لكنك الآن في عالم موازٍ، لا وجود لأحد به إلا من كانوا بالقطار. ولكل شخص مهام والغاز محددة عليه حلّها في وقت محدد وإلا ستبقى هنا حتى موتك.

وكل تأخير قد يؤثر عليك... ونسيت أن أخبرك، قدرتك العقلية زادت 25 سنة إلى الأمام. الم تشعر بذلك؟ الم تلاحظ أن تفكيرك أصبح أوعى وأكثر ذكاءً؟"

بعد قراءة كلماتها المروعة، ألقيت بالهاتف بعيدًا كما لو أنني أرمي معه هذا الواقع العبثي.

"لاااا!" كان صوت صرختي التي ملأت الفضاء الخالي، كأنني أحاول بذلك دفع حدود الواقع لاستعيد العالم الذي أعرفه. لكن لم يكن هناك أحد ليسمع صرخاتي.

هل هذا حقيقة؟ عالم موازٍ؟ مهام وألغاز يجب حلها؟ وما هذا التغير المفاجئ في قدراتي العقلية؟ محاولة لإدراك معنى الرسالة جعلتني أتساءل إن كانت الصدمة قد أثرت على إدراكي، أم أن ما يحدث هو غيض من فيض في عالم أضخم من كل التفسيرات.

اجتاحتني الأسئلة بلا هوادة وأنا أبحث عن بادرة أمل أو تفسير لهذا الخيال العجيب الذي أجد نفسي وسطه، محاولًا فهم كيفية التعامل مع هذا التحول المفاجئ، والوحيد الذي يمكن أن يفهمني وأستند عليه هو... نفسي.

وسط سيل الدموع الذي لا يتوقف والقلب الذي يغرق في بحر من الأحاسيس المتضاربة، تمسكت بتلك الورقة التي أعطتني إياها سارة، كما لو كانت شريان الحياة الوحيد المتبقي لي في هذا العالم المجهول. "أحبك كثيرًا يا عمر"، كلمات بسيطة عانقت أذني وكأنها تحمل في ثناياها كل الدفء والأمان اللذين فقدتهما.

في غمرة الحيرة والشوق، استحضرت شجاعتي لألقي نظرة على وجهي في الهاتف؛ ملامحي الطفولية البريئة كما هي، لا زال عمري ثلاثة عشر عامًا بلا زيادة أو نقصان. لكن عقلي لم يعد كما كان، يحمل الآن ثقل أفكار ورؤى تتجاوز عمري بمراحل.

طغت حيرتي حتى عندما حاولت الاتصال بوالدتي، لكن كل محاولاتي باءت بالفشل. الصمت الذي أعقب ضغطي لزر الاتصال صارخ في وحدته. تخليت عن محاولاتي، وأنا أضع الهاتف بجانبي، ولكني لم أكد أفعل حتى وصلتني رسالة جديدة من ذلك المجهول الذي بات يمثل الصوت الوحيد في هذا العالم، يأمرني بالنظر إلى التاريخ في هاتفي.

قلبي تجمد ويداي ارتعشتا، في لحظة كان هاتفي ينزلق من بين أصابعي التي فقدت كل قوتها ليصطدم بالأرض. "٦/٧/٢٠٥٠" كيف يمكن ذلك؟ بازغت الحقيقة من بين ظلال الذهول والريبة، تاركةً عقلي يغرق في وحل من عدم التصديق. "من ٢٠٢٥ إلى ٢٠٥٠؟" كيف يمكن لعمر، أو أي شخص، أن يعبر عقودًا في لمح البصر و دون ان يتغير حتى، أو في غفوة من الزمن؟

الأرض كانت السند الوحيد الذي استقبلني وأنا أسقط عليها، مهزومًا، غارقًا في دوامة من البكاء والخوف الذي يتعاظم مع كل نبضة. كل جزء مني كان يرجو أن يكون هذا مجرد حلم، كابوس عابر لا أكثر، لكن مع كل ثانية تتسرب بين أصابع الزمن، كانت الحقيقة تتجلى بأكثر صورها قسوة.

نعم، حتى في الظلام الدامس تومض شعاعات الأمل، كالنجوم العنيدة في سماء ليلة مخيمة بالغيوم. إصراري ينبت من بين اليأس، كبذرة يقسو عليها التراب وتصارع من أجل فسحة ضوء. لا يمكنني التخلي الآن، يجب أن أستمد قوتي من كل زاوية ممكنة، من كل خيط من الماضي، من تلك الرسالة، من حب سارة، ومن كل ذكرى أحتفظ بها.

كل كلمة من سارة تعود إلى ذهني كانت كنقطة ضوء تهدي الطريق. "سأبدأ من القطار"، كان كل صوت في داخلي يصرخ معتصمًا بهذا الهدف المتبلور. القطار... هذا المكان الذي بدأ فيه كل شيء، حيث يبدأ كل خيط، يمكنه أن يكون المفتاح. على القطار ستكون المهام والألغاز التي تحدثت عنها الرسالة. عليّ أن أجد الألغاز وأحلها، وأن أسابق الزمن لكسر هذه الحبكة المعقدة التي رمت بي هنا.

اليقظة والتصميم تحشدان قواهما في صدري، وبخطوات ثابتة أبدأ رحلتي نحو المواجهة، نحو المصير، نحو القطار الذي سيكون بداية كل شيء وربما نهايته، إما العودة إلى الأحبة أو الضياع في دهاليز الزمن.

كل خطوة تقودني إلى هناك هي خطوة في متاهة الأبعاد والعوالم. على صدري ترتسم روح المحارب الذي لا يقبل الهزيمة، وفي عيني بريق التحدي الذي يفوق بريق النجوم. فكل لغز معقد، مهما زادت تعقيداته، له حل. وأنا، على يقين بأن لهذه الأحداث المتداخلة مفتاح، سأحرص على إيجاده مهما كلفني ذلك من جهد أو زمن.

الحلقةُ الثالثةُ: لا يرى فقط يسمع

بكل اصرار في قلبي وعزم يحفزني، نهضت وأعدت ترتيب حقيبتي على كتفي، وتمالكت هاتفي بقوة قبل أن أتوجه مجددًا نحو القطار، والتساؤلات تجوب عقلي باحثة عن إجابة.

وبخطوات سريعة، دخلت من باب القطار لأجد صديقي سامر فقط، فتهللت أساريري لوجود رفيق في هذه الرحلة غير المعلومة التي أوغلت في غموضها.

"سامر، هل أنت بخير؟" كانت كلماتي التي كسرت هدوء الترقب.

"أجل، بخير. هل تعلم أين نحن وماذا يحدث؟" أجاب سامر بصوت مبحوح، وإن كان يخفي وراءه شحنات من القلق.

حاولت تجميع أفكاري قبل أن أقدم على السؤال التالي، "سامر، ركز معي قليلاً. هل تشعر بأن تفكيرك قد تغير؟"

تبدو الحيرة على وجه سامر، "لم أفهم؟"

أعيد صياغة سؤالي بطريقة أخرى، "أقصد، هل تشعر بأنك أذكى؟"

يسقط سامر في براثن البكاء، "أريد أمي"، وفي تلك اللحظة أدركت أن براءة الطفولة لم تفارقه بعد، الأمر الذي غمرني بأحاسيس متضاربة وهمسة من الضحك تتسلل رغم الظرف العصيب.

وحيدان دون سوانا، أستشعرُ ثقل الواقع المحيط بنا، فاغدو بين المقاعد بحثًا عن أي وجود آخر، لكن لا شيء، فأعود إلى سامر.

"هيا، لنذهب"، أحثه ولكنه يرفض، يظن أن بقاءه هو نهايته. "هل وصلتك رسالة؟" أسأله، فيضيف إلى حزنه نفيًا جديدًا. أتناول هاتفه بإذنه وأعثر على رسالة من ذات المجهول، فأقرأها متمعنًا وأعيدها إليه ليقرأ ويرد فيها بردة فعل.

آخذ خطوات نحو كابينة السائق، ربما لوجود أدلة أو مفاتيح لما يحدث، لكن مكانها على قدر الهدوء من حولها، خالٍ من الحياة.

وأنا أعود مجددًا مضطرب الخواطر، كان الظرف الموجود على كرسي قريب يجذب انتباهي، نظرة قلقة وفضولية، كحزمة من الأمل تمتزج بالترقب، يمكن لهذا الظرف أن يكون أي شيء، إجابة أو لغز جديد يُضاف إلى القائمة.

بحذر، تقدمت نحوه مدركًا أن كل خطوة قادمة قد ترسم ملامح مستقبل وربما تحمل مفتاح العودة إلى عالمي، إلى عائلتي، إلى سارة. بيدي ثابتة وبحركة دقيقة، فتحت الظرف لأجد الورقة التي تحتضن كلمات قد تقودني إلى فهم أعمق لما يحيط بي من غموض. لقد كنت أعتقد أن هذا اللغز سوف يكون بمثابة دليل، لكن الكلمات بقيت غامضة والتحدي يزداد عمقًا.

"الخطوة الأولى"، هكذا بدأت التعليمات، وكأنها تقول لي إن كل ما مضى كان مجرد مقدمة، والآن يبدأ السباق الحقيقي. "عندما تنتهي من القراءة اعد الورقة إلى مكانها فضلاً وليس أمراً.

اللغز الأول: لا تصعب الأمور عليك، العودة إلى عالمك أسهل مما تتوقع". كلمات تائهة بين اليأس والأمل، تركتني في حيرة من أمري.

بعد أن أعدت الورقة إلى مكانها، عدت مسرعًا إلى سامر، ذلك الشريك الذي تحمله الأقدار في طيات هذه الأحداث. وأثناء الحديث معه، وصلتني الرسالة الغامضة والمقلقة التي حملت تحذيرًا يعيدني إلى الواقع بقسوة: أن لا أكون في الخارج بعد الساعة الثامنة مساءً، وأن أبقى في مكان آمن. التفاصيل في الرسالة قليلة، لكن وقعها شديد، وبحثت بعجلة عن عقارب الساعة لأراها تنذر بقرب الثامنة.

تصرفت بسرعة، كل الأمور تشي بأن الخطر محتمل بمجرد أن توّجه الساعة للرقم الثامن في تتابعها اليومي.

عدت إلى القطار وأحكمت إغلاق الأبواب، وأسرجت سامر بمكان للاختباء. جلسنا مختفيين تحت الكرسي، وناولته الهاتف ليقرأ الرسالة التي أهمتني. وهناك في السكون العصيب، مركزين على كل صوت قد يخترق الهدوء المحيط بنا، أدركت أن كل لحظة قد تحمل في جعبتها انعكاسًا لقدرنا القادم.

من تحت ذاك الكرسي، في زاوية خفية من القطار الذي يبدو كحصن لنا الآن، ننتظر، نصغي، ونتوقع الأسوأ. وكل دقة قلب تكون صداها في أُذُننا، أسأل نفسي في أعماقي عما إذا كان حل اللغز المنشود هو مجرد بقاءنا حيين حتى يكشف الفجر عن وجه الحقيقة.

في ظلام المحطة الذي كان يلف العالم الخارجي بغطاء من السكون والغموض، كانت النافذة الصغيرة تبدو كلوحة معتمة، تتلألأ عند أطرافها بضوءٍ أحمرٍ ضئيلٍ يتخلل الظلام كشعاع في الفضاء. الهدوء في المكان كان مطبقًا، حتى الهمسات كان يمكن سماعها لو خرجت من بين الشفاه.

بتؤدة، عدت أسفل الكرسي حيث كان سامر ينتظر بحذر، حيث قال بصوتٍ أقرب إلى الهمس، كاشفاً عن رغبته في مغادرة المكان والتوجه إلى محطة أكثر أماناً. الحيرة تكونت فوق ملامحه مع لمحة أمل في نظرته، ولا شك أن الفكرة جذابة، لكن الرسالة التي وصلت إلى هاتفي كانت قد حذرت من البقاء بالخارج بعد الساعة الثامنة.

أذكّره بذلك بنبرة تحمل بين طياتها بعض العتاب على اندفاعه، لكن أسلوبه المرح قد خفف وطأة القلق للحظة.

"أين الباقي؟"، كان ذلك التساؤل يحمل في طياته ألواناً من القلق والترقب، وأخبرني سامر بأنه استيقظ والمكان يخلو من الرفقاء. تلاشى الابتسام بينما تبادلنا التأكيدات المتحفظة على الواقع الجديد الذي نجد أنفسنا فيه.

كانت الهدوء يعود ليعم الأجواء عندما دوى ذلك الصوت الخارجي، خطوات أو ربما شيء آخر، صوتاً لا يمكن التعرف عليه بسهولة ولا يمكن تجاهله. انتقلت يدي بحركة لاإرادية مطالبة سامر بالثبات، كرقعة شطرنج تعرف جيداً أن الخطأ وارد.

بحذر شديد أطللت مرة أخرى لأستطلع الواقع، لكن المنظر الذي وقعت عليه عيني جعلني أتمنى لو كانت قد خذلتني في هذه اللحظة. ثلاثة أشكال طويلة، هائلة، سوداء كعمق الليل دون وجوه تُذكر، موجودين هناك كانتقال من اللاشيء إلى الكينونة. أعود على عجل لأختبأ، يدي تختطف فمي، قبضة على صرخة مُرعبة كانت ستنطلق لو شاءت.

قلوبنا تخفق كأجنحة طائر في العاصفة، أنفاسنا مكتومة تقريباً في صدورنا، يفتك بنا الشك حول هوية هذه الأشكال والغرض من وجودها. سامر ما زال صامتًا، ينتظر مني إشارة أو خطة، رؤوسنا تقترب حتى إن أنفاسنا كانت تختلط بينما نحاول تفادي كابوس حقيقي ربما يتربص بنا خلف ذلك الباب الذي فصل بيننا وبينهم.

"أبقى هنا ولا تصدر أي صوت"، ذلك كان الأمر الصامت بيننا ونحن نتحصن بالصمت كسلاح والأمل كرفيق نبقى نتمسك به في لحظات الشدة. كل حركة، كل صوت، كل ثانية، تعد في هذا الزمان العصيب كخيط مشدود يقودنا إما إلى نهاية اللغز أو إلى بداية تحدي آخر.

بين أنفاسي المتسارعة وقلبي الذي كان يقرع كطبول الحرب، كانت الرسالة التي وصلت عبر هاتفي قد أضافت بعداً جديداً من الرعب إلى الموقف الذي نحن فيه. الصوت الخفيف الذي انبعث من الهاتف كان كفيلًا بأن يجعل الدم يتجمد في عروقي، ويجعل من سامر تمثالاً متحجراً بالفزع. مسرعًا، استجبت لطلب سامر بجعل الهاتف صامتًا، مستنكرًا تلك اللحظة من الإهمال التي كادت تكون ثمنها غاليًا.

فتحت الرسالة، وكلماتها تقرأ كجمل حكم علينا بالموت البطيء المحفوف بالرعب، "إنه المارغوس لا يرى فقط يسمع لذلك كن حذرا من أن تخرج أي صوت وإلا سيمزقك إربًا". تلك الكلمات، محملة بالتحذير والوعيد، جعلتني أشعر ببرد يتسلل إلى عظامي، وكأن كل حركة قد تكون الأخيرة.

نفس الرسالة المُرعبة وصلت إلى سامر أيضًا، وعندما قرأها، تبادلنا النظرات التي لم تحتاج إلى كلمات لتصف ما بداخلنا من خوف شديد.

نظراتنا، المُشبعة بالرعب والقلق، قالت كل شيء، فكل منا كان يبحث في عيون الآخر عن بصيص أمل أو خطة للخلاص، ولكن كل ما وجدناه كان الصمت المطبق والظلام الدامس.

في تلك اللحظات، حيث كان الصمت يغلف الهواء من حولنا بكثافة يمكن قطعها بالسكين، أدركنا أن الحركة والصوت كليهما يمكن أن يكونا عدونا. كل شهيق وزفير كان يأخذ حذره، كأننا نحاول سرقة الحياة من بين أنياب الموت ذاته.

من تحت ذلك الكرسي، حيث كان الهواء المحبوس يزيد من شعور الاختناق، بدأت أخطط في ذهني. كيف يمكننا التحرك دون إحداث صوت؟ كيف يمكننا الهروب من هذا الكابوس الذي يتغذى على خوفنا؟ المارغوس، كائن يستطيع سماع أدق الأصوات، جعلنا نتحدى كل ما نعرفه عن الصمت.

"يجب أن نكون أكثر هدوءاً من الظلال،" همست لسامر بأقل صوت ممكن. كُنت أعي تمامًا أن أي خطأ، أي حركة غير محسوبة، قد تكون نهايتنا. لم يكن أمامنا سوى الاعتماد على ذكائنا وقوتنا الداخلية لنتجاوز هذا الاختبار.

الحلقة الرابعة: السبب هو الحل

بعد ليلة شابها القلق والتوتر، حتى النوم كان يشعر بثقل الأحداث التي عصفت بنا، جاء الفجر ليبث فينا شيئًا من الأمل ويدفع بعجلة الزمن إلى الأمام. استيقاظي كان مدفوعًا بالحاجة الماسة للخروج من ذلك المكان وإلقاء كل المخاوف خلفنا، كنت أحتاج إلى أن أرى النور وأتأكد من أن الكوابيس قد تلاشت مع الظلام.

توقظت مع مشاهدة الشمس وهي ترسم الأفق بألوانها الذهبية، معلنة عن بداية يوم جديد، يوم نحن في أمس الحاجة إليه. كانت الأماكن التي شكلت مصدر رعب بالأمس تبدو اليوم خالية وآمنة.

كان هذا التباين بين الليل والنهار يعيد إلينا بصيص الأمل بأن الأمور قد تعود إلى طبيعتها. أيقظت سامر، الذي كانت آثار التعب بادية على وجهه، ومع ذلك، كان هناك تفاؤل في عينيه على الرغم من كل شيء. زيارتنا لمحل الوجبات الخفيفة كانت غريبة نوعًا ما؛ كون المكان خاليًا جعلنا نشعر بأننا نعيش خارج نطاق الزمن العادي. الشوارع الخاوية، المتاجر المفتوحة دون حضور بشري، كل ذلك أضاف إلى الإحساس بالغرابة الذي يخيم على الأجواء.

أخذنا بعض الطعام، وجلسنا على الرصيف نتشارك الصمت والنظرات التي تحمل الكثير من الأسئلة وقليل من الإجابات. الشمس كانت تصعد أعلى في السماء، متجاهلة كل ما حدث وما زال يحدث على الأرض.

"ما الذي ينتظرنا بعد كل هذا؟"، هذا السؤال كان يدور في ذهني بينما كنا جالسين هناك دون وجهة محددة. كان انتظار أي شيء للحدوث يبدو وكأنه دعوة للقدر لكي يختبر صبرنا مجددًا.

يبدو أن الخيارات أمامنا قليلة، ولكن على الأقل، نحن أحرار الآن لنقرر خطوتنا التالية. "ربما يجب علينا أن نبحث عن الآخرين، أو ربما يجب علينا محاولة فهم ما حدث بالضبط"، أقول ذلك لسامر محاولًا قراءة أفكاره من خلال نبرة صوته أو تعبيرات وجهه.

مع رفعنا النظر نحو السماء ونحن نحاول تمييز الأشياء التي بقيت ثابتة على الرغم من الفوضى، كانت الخيوط الأولى لخطة ما تتشكل في ذهني.

كان واضحًا أن الوقت قد حان لنجمع شتات أنفسنا ونقرر ما الذي نريد أن نفعله حقًا.

في تلك اللحظات حيث كان العداء يتخذ أشكالًا أكثر رعبًا، تتحول كل ثانية إلى معركة من أجل البقاء. جاءت الرسالة كإعصار يضرب سكون البحر، محملة بلغز آخر يضاف إلى واقعنا المعقد. "108103"، هذا الرقم المبهم كان بمثابة قطعة جديدة من اللغز، تضاف إلى متاهة الأحداث التي لا تزال تلف حياتنا.

سامر، صديقي في هذه المحنة، عكس صورة الخوف التي كان بودّي لو استطعت محيها من عينيه. القلق الذي كان يلاحقنا كظلٍ قاتم، أضحى الآن ملموسًا بشكل أكبر مع ظهور "المارغوس".

هذا الكائن الذي بدا لنا في السابق كجزء من كابوس لا يمكن أن يلامس الواقع، أصبح الآن جزءًا لا يتجزأ من معركتنا للنجاة.

رد فعل سامر عندما تعثر وسقط كان يترجم كل مخاوفنا، حيث أدركت في تلك اللحظة أن الخطر لم يكن مجرد تهديد خارجي، وإنما كان يتأتى أيضًا من قلة خبرتنا في التعامل مع مثل هذه المواقف. صرختي له بالركض نابعة من غريزة البقاء، وعندما انطلقنا معًا نحو الأمان المؤقت الذي يوفره القطار، كانت الأدرينالين تجري في عروقنا كنهر جارف.

نجاتنا الضيقة، بإغلاق باب القطار بالكاد قبل أن يصل إلينا "المارغوس" ومن معه، أسفرت عن لحظة من الهدوء القاسي. صوت الخبط على الباب كان يحمل معه وزن كل الخوف الذي أمكن تخيله، ولكن مع تلاشي أصدائه، استطعنا أخيرًا أن نتنفس.

جلوسنا على أرضية القطار، أسفلها الثبات وفوقها عالم يبدو أنه اعتاد على الفوضى، جعلني أفكر في كيفية التعامل مع اللغز الجديد الذي أُلقي إلينا. "108103"، هذا الرقم المثير للغموض كان يتقدم إلى مركز فكري، يتحدى كل ما نعرفه عن الألغاز.

"يجب أن نفكر بطريقة مختلفة، سامر. ربما هذا الرقم له معنى لا يتعلق بمكان أو زمان، وإنما بشيء آخر نحتاج إلى فك شفرته لنتقدم." هذه الكلمات خرجت مني في محاولة لجلب بعض الأمل والتفاؤل إلى وضعنا الصعب.

لكن السؤال الذي يبقى معلقًا: كيف نستطيع اجتياز هذا الرقم وما يمكن أن يمثله؟ هل هو المفتاح لفهم ما يحدث، أو ربما نقطة انطلاق نحو فجر جديد بعيدًا عن الخوف والفزع الذي صاحب "المارغوس" ولعنته؟

سامر جلس هناك، موجهًا نظره خارج النافذة التي تطل على الشارع، نغمات صوته تحمل ثقل اليأس وبقايا الشجاعة. "يا عمر، لا مهرب." هذا الإقرار المبطن بالعجز كاد يبتلعنا، لكن عبارته المبتورة قطعتها صدمة ملأت عينيه.

كنت أحدق فيه، أعلم أن جميع التوقعات تداهم خيالنا في هذه اللحظة، حيث تشير كل علامة إلى خطر داهم.

"ماذا هناك يا سامر؟" سألته وأنا أشعر أن دقات قلبي تتسابق مع السؤال. جوابه لم يأتِ مباشرة، بل استفسارًا محمومًا عن الرقم الذي أشغلنا، "108103." حينها، كالبرق الذي يخترق السكون، قفز من على الكرسي وكأن جرس إنذار قد دق في رأسه، "عمر، هل أنت مستعد؟"

الاستعداد لم أعد أعرف معناه، الكلمة ترددت في ذهني مرارًا. "لماذا؟" سؤالي كان نافذاً في الظلمة، محاولاً العثور على شعلة توجهنا. "سنخرج."

حاسمة كلماته وكأنها مرسومة على جدار، لكن الجنون بدا يتقاسم معنا نفس الجدار.

"هل أنت مجنون؟ كنا سنُمزق من قليل!"

صوتي ارتفع متحديًا فكرة الخروج لكن دفعة سامر القوية بي إلى النافذة جعلتني أغوص في الترقب. "انظر يا عمر للوحة السيارة." كانت تلك اللوحة كمفتاح ألغاز جديد يفتح أبوابًا لم نكن نعرفها.

نفس الرقم الغامض صُور على لوحة السيارة، وهنا كانت تتشابك خطوط الدهشة والإدراك في ذهني. بفرح شديد، لاحظت تبادل أدوار الصيد بيننا وبين القدر، فأصبحنا فجأة نحن الصياد.

فتحت باب القطار بحذر، كل حركة تُحسب وتُفحص. حجر صغير أمسكت به ورميته بعيدًا ضد سلة مهملات مصنوعة من الصفيح، صوت الخبط الناتج عنه كان كاختبار نهائي للواقع الذي نحياه. بخفة، وبدون أدنى إشارة لوجود المارغوس أو اقترابه، انتقلنا من القطار إلى السيارة الموعودة.

السيارة كان بابها غير مقفل، يحمل في ثناياه دعوة صامتة لندخل. المفتاح في الداخل كان كالوميض، علامة مشجعة، أو ربما نذير لقادم لا نعلمه. "ابحث في السيارة"، دعوة سامر جاءت في وقتها. نبحث ولكن لا شيء مادي يلمع سوى امتداد الغموض.

"سأشغل السيارة لنذهب إلى مكان آمن."

قراري سرعان ما علّق عليه سامر بـ"انتظر!"

كانت صيحته تحمل وقع الاهتمام. "هناك

ورقة على الأرض." انحنيت لألتقطها وما إن

فعلت، ظهرت الجملة الممهورة بالتحذير: "لا

تشغل السيارة قد تزعج المارغوس."

الوجهة الأخرى للورقة حملت اللغز الثالث.

"اللغذ الثالث: قد يكون السبب في تلك

الورطة هو الحل." أدركت مع سامر أن

الورطة هي القطار الذي كنا نعده سجنًا قد

يكون في الحقيقة نقطة انطلاقنا نحو الفهم.

التفاصيل في كل خطوة صارت تحتاج إلى معاينة أعمق. الترابط بين الرقم والسيارة والورقة يجعلنا أمام طريق محفوف بالأسئلة والدلالات. ماذا لو كان القطار بمثابة مزلاج يفتح لنا الأبواب المغلقة؟ هل من الممكن أن نكون مُختبرين من قِبل قوة لاأرضية داهية؟

أمام القطار الذي بات يمتلك مكانة أساسية في هذا اللغز، وقفنا نفكر ونقلب كل حجر، نحلل كل خيط دخان. ربما، فقط ربما، يكون السر محتجبًا في الأشياء العادية التي تعودنا تجاهلها. والآن، بكل حذر وحيطة، سننهل من الورطة نفسها، ربما هي البوصلة التي طال انتظارها.

الحلقة الخامسة: الزمكان

تصبب العرق منا والأفكار تدور في رؤوسنا كإعصار حار، بعدما تركنا السيارة الغامضة وراءنا، متجهين نحو القطار بخطى متتابعة محمومة. قلب القطار رأسًا على عقب، سامر يقلب كل زاوية بحثًا عن مفتاح هذا اللغز المحير، بينما استغرقت في التأمل وقد أحاطني الإحباط بعد ساعة كاملة من التنقيب المضني دون نتيجة.

مللت من عدم العثور على أي شيء قد يدلنا على معنى كلمة "الورطة" وهوس سامر بها. "ماذا لو يقصدون بالورطة شيء آخر غير القطار؟" تقدمت بهذا السؤال وسط دوامة من الشك والترقب. سامر، متمسكًا بيقينه، أصر على أن القطار وحده هو مفتاح اللغز.

شعرنا بالعطش، اتفقنا على التوجه نحو متجر قريب للتزود بالمياه. الخطى كانت ثقيلة لكنها مُصرة. كنا في طريقنا للخروج حتى ألتقطت نظرةً إلى جريدة عُرضت بها صورة القطار. الصدمة تملكتني وقرأت بصوت عالٍ لسامر المتحير، "اختفاء قطار بعام 2025 ولا أثر له ولا لركابه."

الأمر كان أشبه بالسينما. القطار الذي نعيش فيه قصتنا الغامضة اختفى قبل سنوات بأسباب مجهولة، مما جعلنا نتساءل عن موقعنا في الزمان والمكان. هل كنا عالقين في دوامة زمنية أم دربتنا الأقدار للتواجد في مكان محوري لحل اللغز؟

وقفت بجانب سامر، الذي صار وجهه مرآة لنظراتي المحتارة، وتبادلنا النظرات القلقة. "هل نحن عالقون في الزمان أم في المكان؟" سألني بصوت متحير.

"الزمكان"، أجبته بما خالط عقلي من حيرة وبصيص أمل. "إذًا نحن في المستقبل، سافرنا عبر الزمن..."

قطعت شروده بتأييد قائلاً: "وكما سافرنا هناك حل للعودة لزمننا."

كانت القناعة تزداد بأن حل لغز القطار موجود بداخله، كما لو كان جزءًا من نسيج الواقع والحلم، احتضن ذلك الجزء الأعمق من حدسنا الذي يدفعنا دومًا نحو اليقين حتى وإن كان مبهمًا. "يا عمر ثق بي، اليوم سنعود لحياتنا الطبيعية، أنا من سيعيدك..." قول سامر كان كوسام شجاعة صُنع من العزيمة والإصرار.

لم تستطع عيني كتمان دموعها، لكن هذا الضعف المتدفق كان قوة في ذاته. الثقة في سامر كانت مرسومة على ملامحي، تعبر عن الرابطة التي تجمع بين شخصين يقاومان الواقع القاهر. "أثق بك يا رجل"، همست بها مدركًا أن الثقة هي بذور الأمل الوحيد الذي يمكن أن ينمو في تربة صلبة كهذه.

وهكذا، اجتمعنا مرة أخرى في القطار، هذا الكيان الذي حمل أكثر من ذكريات أو أحداث، بل صار حاويًا لأرواحنا المتأرجحة بين الأزمان، حيرانين لكن عازمين على كشف النقاب عن الأسرار التي يجوب بها هذا العالم.

جلسنا هناك في القطار الذي تحوّل بمرور الوقت إلى حجرة زمن حابسة لأفكارنا وسط زخم الأحداث، حيث بدأ الحديث ينساب بيننا بسهولة، كانهاء ليوم طويل ومتعب. سامر استهل الحديث، يروي لي تفاصيل يومياته المدرسية، الأوقات اللطيفة التي صنعها رغم البعد الظاهر بيننا خلال تلك الأيام. كانت كل كلمة تخرج منه تحمل نغمة من الحنين إلى أيام كان فيها الهم الأكبر هو الواجب المدرسي أو الفسحة.

بعد أن انتهى، حان دوري لسرد حكايتي، غير أنني شعرت بصعوبة في سردها، كأنما كل لحظات حياتي تُلخص في بضع كلمات. "أخخخ يا سامر، حياتي اختصرها بكلمة وحدة فقط."

التقط سامر اللحظة بحدسه، فسألني بنبرة متفاجئة ومهتمة، "يا الهي، وما هي؟" كلمتي كانت بسيطة ولكنها معبرة، "سارة". ابتسامته المتفهمة كانت كل ما احتجت لأدرك أنه يعلم، وقد شعر بذلك.

الحديث بيننا تحوّل إلى ضحك وذكريات ومواثيق طفولية، حيث شاركته في وعد قديم بيني وبين سارة، وعدٌ يحمل في طياته مزيج من البراءة والجدية، "نحن وعدنا بعض عندما نكبر سنتزوج وسنسمي ابنتنا سمر، مزيج بين سارة وعمر." سامر، ضاحكاً، اعتبرها أحلام طفولية لكن كلماته كانت تحمل احترامًا وتقديرًا لحلمي الصغير.

جدالنا الودي حول الطفولة والاحلام تحول إلى تأمل عميق حين قلت له، "كفاك هراء يا رجل. لازلنا أطفالًا، لكن هذه اللعبة التي نعيشها، التي لعبت بعداد عمرنا، عندما نعود لزمننا، سنعود لعقل الطفل الصغير ولحياتنا الطفولية، وسيكون هذا مجرد كابوس فقط."

وفي هذا الحديث، في تلك اللحظة من الزمن، وجدت أن الحياة تمتلئ باللحظات التي تبقى محفورة في الذاكرة، بغض النظر عن المكان أو الزمان الذي نجد أنفسنا فيه. مشتركات قلوبنا ترنو إلى البساطة في وقت كانت فيه مشاعرنا هي القوة الدافعة خلف أحلامنا وأهدافنا.

الزمن، كالقطار الذي نجلس فيه، يواصل سيره بنا، متجاوزًا العواصف والسحاب، حاملًا في جعبته الآمال والأحلام، التي تومض كنجوم في سماء الحياة.

التفت إليّ سامر بنظرة تحمل في طياتها قصصًا من الأخوّة والصداقة العميقة، ملامحه تحكي قصص الساعات الطويلة والمغامرات المشتركة التي خُضناها سويًا. "يا عمر، أريد منك وعدًا." نبرته كانت محملة بالجدية الممزوجة بعذوبة تلك اللحظات التي يتبادل فيها الأصدقاء الوعود.

"وعد ماذا؟" سؤالي كان بمثابة جسر لمعرفة ما يختبئ في ذهنه، ما هو ذلك الوعد الذي بدا هامًا بالنسبة له في تلك اللحظة. "عندما نعود، لنبقى أصدقاء. أحببتك كثيرًا يا عمر." جريان الكلمات من فم سامر، كأنها تسافر عبر الهواء لتحط في قلبي، بثت فيّ شعورًا بالدفء والتقدير.

وضعت يدي على كتفه، علامة تقدير وموافقة على الوعد الذي طلبه. "أحببتك أيضًا يا سامر، وعد لبقاء صداقتنا يا سامر، اوعدني أيضًا." كانت كلماتي بمثابة توقيع على معاهدة صداقة لا تنتهي، متوجة بوعده المُعلن بابتسامته، "وعد."

أخذت نفسًا عميقًا مستسلمًا لتلك اللحظة العابرة التي تجعل الزمن يقف محتفيًا بصداقتنا، ووضعت رأسي على الكرسي، حتى سُمع ضحك سامر الملؤوف يكسر صمت القطار. "إذًا عندما نعود سنعمل عرس لك ولسارة." ضحكت من قلبي على خفة دمه وتخيلاته الطريفة، ورديت عليه، "لا يا سامر الوقت مُبكر، لازلنا صغار."

ضحكنا معًا في تلك اللحظة الخالصة التي حملت بين ضلوعها الكثير من الأحلام والمشاعر الصادقة. وعندما تابع سامر يقول "لكنكم ستتزوجون على كل حالتين." كنت أعلم أنه يتمسك بأحلام الطفولة كذكرى جميلة تربط بيني وبين سارة، فأجبته "أعلم، لكن ليس بعمر الطفولة. عندما نكبر بالتأكيد."

ما بين الجد والهزل، كان سامر يحاول في كرمه أن يمنحني السعادة بتصوراته لمستقبل أجمل، فقال لي "كما تريد، أردت خدمتك فقط."

ضحكاته التي تلت كانت بمثابة دليل على قوة الرابط الذي يجمع بيننا.

كان المساء يغلفنا بنسماته الباردة المخلوطة بالهمسات، عندما تخلل صوت رنة الهاتف الجو الهادئ الذي كان يسود بيننا. من دون تردد، انتزعت الجهاز من جيبي، دافعاً بالفضول الذي كان يمزق صبري إلى تلك اللحظة الحاسمة. بمجرد فتح الرسالة، شعرت وكأن الكلمات تنبعث من الشاشة، تغزل نفسها عبر الهواء لتحط بخفة بيننا: "انسج الألغاز كلها معاً، ومن غفلة لا تكن؛ فالثالث بجانب هذا الجديد يجب أن يُحلّ. يأتيك الرابع بنصيحة: لا تغرق في بحر التفكير العميق، فالجواب يكمن في بساطة الفكر."

إليه رفعت بصري، متتبعاً نظرات سامر الذي كانت الحكمة مرسومة على محياه. "الغموض يلف اللغز الثالث، 'قد يكون الشفاء مخبأً في الداء نفسه'."

استدارت عيناه نحوي مجدداً، كمن يبحث عن إجابة كانت طي الكتمان، "وماذا عن اللغز الأول؟"

بثقة تملأ صوتي، انسكب الرد، "ببساطة يشير إلى أن الجواب أقل تعقيداً مما يبدو."

كدت أحكي له عن مواجهتي الأولى مع اللغز، عندما شق صمتنا صوت آخر؛ طرقات متسارعة وملحة على الباب شكّلت عاصفة من الرعب في نفوسنا. كان هناك... المارغوس، الظل البغيض الذي كان يتربص خلف الباب.

تسلّل الخوف إلى قلوبنا، وتبعثرت أفكارنا مثل أوراق تتلاعب بها الريح. وفي لحظة غير متوقعة، كمن يخسر الثبات على حافة الهاوية، انزلق سامر مترنحاً وهو يصرخ بصوت متصاعد "المفر من الباب الخلفي للقطار!"

بقوة العاصفة التي تدفع بنا، عبرنا المساحة إلى الخلف، فتحنا باب الهروب واندفعنا إلى ما ورائه، نغلقه خلفنا بكل ما أوتينا من قوة. بخطى متسرعة ملؤها الخوف، أقبلنا على السيارة التي كانت تنتظرنا بجانب الرصيف و التي كانت تحتوي على احد الألغاذ المهمة، نتسلل إليها بروح المطاردين، تائهين بين الخلاص والذعر.

وفي تلك الثانية، التي كان يفترض أن تكون نهاية مطاف هروبنا، وأنا أستعد لإطلاق عجلة الزمن من جديد بتشغيل المحرك، تفاجأت بتردد سامر، صوته المطعم بالهلع يعلو: "لحظة! ألم نتجاهل النصحية المكتوبة؟" توقفت، القلق يغلب على روحي، "ألسنا في شفير الخطر؟" قابلني بسكينة تتخلل توتر اللحظة، "السكينة سلاحنا، إن إضافة المزيد من الضجيج لن تجلب إلا المزيد من الفوضى."

حيث كنا، محتمين داخل كومة لحظات من الأمان الذي تمنحه السيارة، ووجوهنا تتهجد شرفات النافذة، استمعنا إلى أنفاسنا المنفرطة ونحن نرقب المارغوس وهم يتجولون، يرسمون دوائر غامضة بجانب القطار.

همس سامر، والاغتسال بنفحات الشكر يتخلل صوته، "الحمد لله أنهم لا يروننا." لم أتمالك نفسي من مداخلة شبهه ممازجة بقلق مسلسل، "لا يرون، ومع ذلك ينبعث منهم هذا الخطر الجاثم. تخيل لو كانت الرؤية حليفتهم!"

عندئذ، اكتنفنا الهدوء، ليس منا من يجسر على كسر سكونه، فيما الترقب يبقينا شواكيش مغروزة في الزمن، ننتظر تلاشي ظلال تلك الكائنات بعيدًا عن محيطنا. كل لحظة مرت، كانت تزيد من رصيد الأمل فينا بأن العودة إلى قطار أحلامنا ولغزنا المعقد ستكون ممكنة بلا قربان.

بين القليل من الزمن والكثير من الانتظار، انكشفت الرؤى، وبدأت صورة المحيط بهدوءها تحتضن فكرة الانطلاق نحو القطار. "حين يبتعدون، ستكون اللحظة لنا لننسج من الجرأة وشاح العودة." أغمغم كلماتي مكتنفة بثقة مستجدة، ففي الهدوء تتلألأ خيوط الحلول وبين ثنايا الصبر تتكشف طرق النجاة.

كان الانتظار ليس مجرد مرور زمن، بل هو تجلي للحكمة وتأكيد لأهمية التبصر قبل القفز نحو القرارات. في سكون الرهبة واصطخاب الترقب، كانت تلك اللحظات تعيد تشكيل فهمنا لمعنى الجرأة والأمان في آن واحد.

في تلك الثواني الممتدة، راودنا إحساس بأننا نكتسب نوعًا من القوة، قوة التأمل والاستعداد، تلك التي تمنحك الصلابة لاقتحام اللحظة المقبلة بكل ما فيها من تحديات. في انتظارنا ذلك، تشكلت لدينا خطة؛ بمجرد أن تهب لنا رياح الفرصة، سنقضي على الفاصل الزمني الفاصل بيننا وبين القطار، مخترقين مجددًا عتبة المغامرة، عائدين إليه بقلوب أكثر تصميمًا وعقول أكثر تأهبًا لفك ألغازه الباقية.

الحلقة السادسة: فوز لكنه خسارة

كنا هناك، موغلين في الانتظار داخل السيارة، ضجة الصمت تعتصرنا والقلق يلون توترنا، حين شق الصمت صوت الإشعار. كانت الثواني تتحول إلى وقود قلق، تغذي ترقبنا. لم يتوقف الزمن فحسب، بل وكأنه تراجع خطوة إلى الوراء، مراقبًا. سامر ينظر إليّ بعيون متسعة، في حين استحضرت الجرأة لفتح الرسالة، وقرأت بصوت يتردد في فضاءنا الضيق: "مرحبًا، كيف حالكم؟ الآن، ستصلون إلى نهاية هذه الرحلة الممتعة بنظري. سيبدأ العداد خمس دقائق.

خلال تلك الدقائق الخمس، يجب أن تصلوا إلى القطار قبل انقضاء الوقت، وإلا فإن فرصتكم للنجاة ستتلاشى. وفرصة سعيدة."

تبادلت النظرات مع سامر، الإثارة تكاد تخنقني، "سنخرج يا سامر، بسرعة! لدينا خمس دقائق فقط!" برباطة جأش، فاجأني سامر بالرد، "اهدأ، يا عمر. المارغوس يحاصرون القطار من كل الاتجاهات." كنت أدرك أن الوقت ليس في صالحنا، "امسك بالباب الخلفي، يا سامر. امسك، وعندما أقول هيا، ننطلق. استعد!" وبقرار متهور بدا كمحاولة يائسة لكسر الجمود، ضغطت على زمور السيارة.

الصدى مزق صمت الشارع، وكما لو كان بإيقاع الضوء، تحول كل المارغوس نحونا، ساقين بعضونهم إلينا.

سامر، بخفة حركة غير متوقعة، فتح الباب الخلفي، وكأنها شارة بدء لنا، انطلقنا متسابقين مع الزمن إلى القطار، نفتح بابه بسرعة وندخل، وبنفس السرعة نغلقه خلفنا.

لم يكن هناك وقت لالتقاط الأنفاس، "ابحث عن شيء، يا سامر، بسرعة!" كدت أبدأ في التمشيط بنفسي حين جاءت رسالة أخرى تخترق الأجواء: "تبقى لديكم ثلاث دقائق. اذهبوا إلى المحل الذي رأيتم به الجرائد. يوجد بإحدى الجرائد حل لجميع الألغاز." ابتسامتي تخترق عبوس القلق، ازدادت دقات قلبي، "هناك أمل، يا سامر."

عيون سامر التقت بي، محتدة ومصممة، "نذهب معًا أو نموت هنا معًا." لم يكن هناك وقت للجدل، كنا ندرك أن كل ثانية تزن ذهبًا. "إذًا، يا سامر، هل أنت مستعد؟" فلا وقت لدينا." كان جاهزًا، فتحنا باب القطار مجددًا، نندفع بإصرار نحو المحل.

وبين أكوام الجرائد، بدأنا تفتيشنا، كل لحظة تتجمد، تعد الثواني بثقل. أخيرًا، في تلك السبحة الزمنية المترددة، أمسكت بجريدة تسللت من بين يدي، ومنها تتساقط ورقة.

بتلك الورقة بين يدي، انفتحت دروب لألغاز لطالما غلفتها غشاوات من التساؤلات والتوترات.

بنبرة متحمسة والدقائق تعد العد التنازلي، شاركت مع سامر سر الرسالة، "تبقى لدينا دقيقتان فقط! الحل بسيط، كما قالت الرسالة، لا يحتاج لتفكير كثير. الرقم هو (108103)، وهو يمثل إحداثيات عودتنا إلى عالمنا. يجب أن نذهب إلى مقدمة القطار، ندخل هذا الرقم ونستخدم المفتاح لنشغيله، وسنعود إلى عالمنا!"

تراقصت الفرحة في عيون سامر، ممزوجة بالإثارة وريبة التردد، وبينما ضممته في حضني، شعرت بالدفء يغمرني، "يا سامر، سنعود، هذا هو الحل!" استجابته كانت ضحكة صافية، تخترق ألم المخاطر التي واجهناها، "بسرعة!"، صرخة خلقت من الدقائق سفن النجاة الأخيرة.

مع كل خطوة هاربة من تلك الدقائق المتبقية، اندفعنا مجددًا إلى القطار، نغلق خلفنا كل أبواب القطار، مستعدين لمواجهة ما تبقى من تحديات. وبينما نحن نتخبط في طريقنا نحو مقدمة القطار، كانت أيدينا وأرواحنا متشابكة في تلاحم لا يشوبه شك، عازمين على استعادة طريقنا إلى عالمنا الذي طالما افتقدناه.

لكن، الطريق لم يكن ليخلو من المفاجآت، فقد جائت رسالة أخرى تخترق الصمت. تهلكت أنفاسي وأنا أستخرج هاتفي، يرتفع نبضي مع كل نقرة تسبق فتح الرسالة.

هذه المرة، بدت الشاشة كوابل تنقلنا لبوابة أخرى من الغموض والأمل، متسائلاً، هل هذه إرشادة جديدة تضيئ طريقنا، أم عائق آخر يحتاج إلى تجاوزه؟

في هذه اللحظات الحرجة، كان كل شيء يعتمد على قدرتنا على التأقلم والاستجابة بسرعة للمعطيات الجديدة، كنا نقف على أعتاب لحظة قد تعيد تشكيل كل ما مررنا به. تُطوى صفحات اللحظات، عندما يُصبح الوقت كغبار يغلف مشاهد الحياة الجامدة، في بطء واضح، أشبه بسيناريو من الأفلام التي تهدأ فيها الحركة لتبرز لحظة مفصلية.

ذلك كان شعوري عندما قرأت الرسالة التي جاءت على هاتفي، وأنا أشدّ على معصم سامر. ذلك المارغوس يقف على مقربة منا، وعيناه تلمعان ببريق مخيف.

لكل منا لحظة تتراءى أمامه، حيث يتحدد المصير.

همستُ بصعوبة، كلمات الرسالة تتسرب من بين شفاهي المرتعشة، متحاشيًا النظر إلى سامر، وقد امتلأت عيناي بغيوم الخوف. "المفتاح... المفتاح ليس هنا! إنه... إنه مع المارغوس."

لهدوء الذي سبق العاصفة انقلب فجأة لكرة من القلق المتأجج. "لا يوجد وقت!" هذا ما صرّح به سامر، وكان اليقين يتشكل في جملته الحازمة.

وأنا كلي عزم على ألا أفقده، إذ لم تكن الخطورة لتبدد تلك الشفافية التي كنت أسعى إليها طوال وقتي إلى جانبه.

اختلط البكاء بتوسلاتي، فالوقت ينحسر كالمد الذي يُظهر الصخور الحادة لقدر لا نعرفه.

وعدني سامر بالعودة، عهد، كان يرسم ابتسامة على محياه، ولكنها لم تكن تخفي التوتر الذي يشوبها.

كلماتنا الأخيرة، التذكير بأسماء قريبة من قلوبنا، لحظة من الضحك العابر، وكل ذلك تحت وطأة العد العكسي اللعين الذي يرسم نهاياتنا المحتملة.

فتح سامر الباب، الحركة تبدو وكأنها تسير على خيط من الترقب. تحرك سريع، دفعة قوية، والمفتاح يُقذف في الهواء متجهًا نحوي، في حين كانت النداءات تتقاطع مع أزيز الدقائق المتساقطة.

"هيا يا سامر، هيّا!"

المشهد يتسارع، صدى الأقدام الراكضة على الأرض يمزق صمت الوقت المتبقي، وعلى الرغم من الواجب الذي يحثّنا، كان القلب ينشطر بين الوصول إلى الهدف وبين الرغبة في ألا يتحول الفراق إلى واقع لا رجعة فيه.

الزمن هو الخصم والحكم، يتداخل مع بعضه البعض في سباق حيث كل شيء مرهون.

وكل خطوة تقرّبنا من الخلاص تبعدنا في نفس الوقت عن كل ما كان يمكن أن يكون.

جاء سامر مسرعًا، قلبه ينبض بشدة توازي ركضه. وبينما كان يقترب، ألقى نظرة خاطفة خلفه، فاكتشف بداية نهايتنا المحتملة: المارغوس كان قريبًا جدًا، بشكلٍ ينذر بأنه إذا حاول ان يدخل من الباب، سيتمكن الوحش من التسلل إلى القطار خلفه. في لحظة تامة من اليقظة، توقف سامر مرة أخرى واستدار نحو الكائن الداهم، استعدادًا لمواجهته. بمنتهى الشجاعة، وضع سامر يديه على جسم المارغوس الضخم، محاولًا إبعاده بكل ما أُوتي من قوة. "يا عمر..." صدح صوته، معلنًا بداية التضحيات "اغلق الباب بسرعة يا عمر!"

لم أستطع أن أبدو إلا مصدومًا، وفي محاولة آخيرة لمنع القدر المحتوم، صرخت بكل الأسى والرفض الذي يمكن لصوت إنسان أن يحتمل، "لا يا سامر، هيا تعال!" لم تسعفني محاولاتي في إيقاف ما بدأ يتجسد كحتمية.

وبينما زاد بكائي والكائن يواصل ملاحقة سامر، لم أفكر مرتين، وركضت نحوه بكل ما أملك من سرعة، وبحركة تعبر عن الإصرار والحسم، تمكنت من إبعاد المارغوس عن سامر. كل شيء بدا كما لو كان قد توقف، وفي لحظة من الزمن، انقلب الصيد نحو الصياد.

مع الكائن يلاحقني الآن، لم يقف سامر مكتوف الأيدي؛ ركض خلف المارغوس وقفز عليه بكل ما في جسده من قوة، مما أدى إلى سقوطهما معًا أرضًا. ومن الأرض، وجّه لي سامر نظرة مفعمة بالعزم والإصرار، "اذهب إلى القطار بسرعة!"

بدون تردد، ولكن بقلب مثقل، ركضت بأسرع ما يمكنني نحو النجاة الموعودة. من الأعماق، ناديته، "هيا يا سامر، تعال!" لكن قدرنا كان له رأي آخر.

قبل أن تُغلق الفجوة بين سامر وباب القطار، ظهر مارغوس آخر، كظل مرعب، وبضربة خاطفة، أطاح به أرضًا. امتلأت أعين سامر بإدراك مؤلم لن يكون هناك مجال آخر للمحاولة.

وهكذا، مع قلب يثقله وجع الرحيل، جاء سامر إلى مقدمة الباب يمسك بقدمه ذلك الوحش، وبكل الحب والأسف في عينيه، أغلق الباب من الخارج. "هيا يا عمر، اذهب، أحبك كثيراً!" ومع نبرة حزن وإصرار، صدح صوته في صرخة أخيرة، "اذهبببببب!"

تملكني البكاء والأسى وأنا أتراجع خطوة للخلف، قلبي يتكسر لمشهد صديقي سامر وهو محاصر بتلك المخلوقات الرهيبة. لم أستطع تحمل رؤية ذلك المنظر المروع، فغطيت وجهي وأدرته بعيداً، حيث كل مقاومة من سامر تبدو عبثية أمام قوة الأعداء المتزايدة.

لازلت أتذكر كيف أنهارت قواي وهوت على أرضية القطار، نقرات يائسة ومؤلمة على المعدن البارد تردد صداها مع صراخي، "لا يا سامر! لماذا؟ كيف تفعل هذا؟ ماذا عن وعدك؟" حيث تركت دموع الأسى واليأس تغمر وجهي.

لحظات تمر كالأعوام، منقطعة أخبرتني رسالة ظهرت فجأة على هاتفي؛ بلحظة غامرة بعزم يكسر ثقل اليأس، مسحت دموعي قليلاً لأرى.

"لديك دقيقة واحدة فقط هيا اسرع" قرأتها بصوت يكاد لا يكون مسموعًا واختلطت مشاعر الغضب مع اليأس، "تباً لككككك!" انفجرت بها وأنا أعدو نحو مقدمة القطار.

نظرت إلى لوحة الأرقام، يدي ترتجف والدموع لا تزال تنهمر، وضعت الأرقام 108103 بكل القوة واليقين الذي تبقى فيّ، ثم أدرت المفتاح بكل ما فيّ من يأس وأمل متشابكين. إنطلق القطار.

جلست بثقل على الكرسي، ربطت نفسي به ووضعت رأسي على الظهر، الدموع تزداد والصراخ يعتصر قلبي، كلما ازدادت سرعة القطار، ازداد عمق جراحي. بلحظة، كل ذكرى مع سامر تمر أمامي كشريط سينمائي طويل.

لم يمر علينا اللقاء سوى يومين، ومع ذلك، شعرت كأنه سنين من الصداقة والتفاهم.

"لماذا يا رب؟" تساءلت وأنا أعاني لأتنفس بين شهقات البكاء، "لما كان على الحياة أن تأخذ منا كل غالٍ؟"

تسري الحياة أحيانًا بقسوة غير مبالية، وفي ذلك المسار السريع والمؤلم، تلك اللحظة التي تركت سامر خلفي، شعرت بالاختناق، وبالفقد، وبالألم الذي يمزق داخلي، "أخ يا سامر... أخ يا سامر..." ومع كل همسة لاسمه، ازدادت الجراح تعمقًا، والقلب يغرق أكثر في بحر من الدموع واللوعة.

الحلقة السابعة والأخيرة: عودتي

الحياة، بكل مفارقاتها وألغازها، تبدو أشبه برحلة قصيرة نجهل متى تنتهي. وفي هذا التتابع الضيق من الزمن، تأتي العلاقات والصلات التي ننسجها كخيوط رفيعة، تختلف في قوتها ومعناها من شخص لآخر. ومع ذلك، قد يأتي لحظات في الحياة تتسع فيها هذه المسافات الصغيرة لتحمل أبعادًا أعمق، تكشف عن جواهر خفية بين ثنايا الأيام.

لقد عايشتُ تلك الحقيقة بكل ما تحمله من معانٍ في غمار مغامرة استغرقت يومين فقط، أو بالأحرى 48 ساعة. خلال هذا الزمن القصير بمقاييس العمر، تعرفت على سامر. لقد كانت هذه العلاقة العابرة أكثر عمقًا وأهمية من علاقات استمرت منذ طفولتي.

ففي هذه الرحلة القصيرة، استفدت بشيء و هو أن قدراتي الذهنية قد توسعت بشكل غير متوقع، قد شققت طريقًا عبر الزمن وزادت خبرتي بما يقارب الـ25 سنة. كانت المعلومات والوعي يتدفق إلى عقلي كما لو كان هناك مزروع ذكاء قد زرع فيه منذ زمن بعيد. هذه الرحلة القصيرة فتحت أمامي أبواب الإدراك، معلمةً إياي دروسًا عميقة عن الحياة ومعانيها المتعددة، دروس لن يتوقف دويها في أعماق روحي.

ولكن، ومع كل هذه الأحاسيس المكثفة والدروس المستفادة، لم أتمكن من احتواء سيل الدموع الذي كان يجرف وجهي في أثنائها وصورة سامر تعرض أمامي. بدأ القطار يهتز، علامة تنذر بتسارع الأحداث وزيادة السرعة، كتعبير حقيقي عن مجريات مغامرتي.

السرعة تزداد تدريجيًا، مسحوقة كل لحظة تقديرية في ذهني بأخرى أشد سرعة وقوة.

ومع تسارع القطار، بدأت تتداخل المشاعر والأفكار بتلاطم يصعب تهدئته. وفجأة، في لحظة تكاد تكون متوقعة نظير تسارع الأحداث، شعرت بالصدمة نفسها التي كانت تعتري القطار، لكنها كانت صدمة روحية تهز كياني. وفي لحظة خالية من الزمان، أغمي عليّ، وأخذني الظلام لبرهة، بعيدًا عن واقع المشاهد الأخيرة، لأجد نفسي في مكان آخر، حيث الزمان والمكان يتلاشيان أمام عظمة الروح وأسرارها.

في اللحظة التي بدأت فيها بفتح عيوني ببطء، أخرجت نفسي شيئاً فشيئاً من غيابة الظلام والغموض.

أول ما استقبلته نظراتي المحتارة كان جمعًا من الأطباء يحيطون بي من كل جانب، بنظراتهم الجادة ووقفتهم المحترفة التي تجلت فوقي كسحابة من الأمل. كان هذا أول تواصل بشري لي منذ يومين، ولكن على الرغم من غرابة الوضع، شعرت بسلام غريب يتسلل إلى قلبي كأول قطرات الندى، فقد عدت أخيرًا إلى عالمي، إلى كل ما هو مألوف وعزيز، عالمي الذي يضم عائلتي و... سارة.

مع فوران الحياة داخلي، انتفضت بسرعة، يدفعني إلياذة المشاعر والرغبة في العودة إلى حياتي القديمة، لكن الأطباء حاولوا تهدئتي بكلمات معسولة ولكن جادة، محاولين زرع شعور بالأمان في نفسي المضطربة.

كنت أقاوم، كل جزء في جسدي يصرخ برغبة في رؤية عائلتي، تلك الروح التي لا تُهدأ بمجرد كلمات.

وفي خضم هذا الصراع، اقترب مني رجل يرتدي طقمًا أسود، إطلالته ملفتة وهو يتقدم نحوي بثقة. ابتسامته بثت فيّ نوعًا من الارتياح، خاطبني باسمي، "كيف حالك يا عمر؟"، كان صوته ممزوجًا بتفاؤل دافئ وحميمية. رددت عليه بأنني بخير، بينما كنت أسأل عن عائلتي بتوق يعتصر القلب. أجابني بثقة كأنه يمسك بيدي قائدًا إياي إلى مرفأ الأمان، "الآن سأخذك، لا تخف".

بعدها بدأ بطرح أسئلة خفيفة حول الحادثة المؤلمة، سائلاً إن كنت أعلم مكان الآخرين. أجبته بأنني لم ألتقِ سوى بسامر، الذي فقدته أمام عينيّ في لحظة قاتمة، ولم أتمالك نفسي فانهمرت دموعي. لاحظ قلقي وسارع لتهدئتي، موقفاً موجة أسئلته. "إذن، أنت لا تعلم عن أي منهم شيئاً؟" سأل مرة أخيرة. "لا، لا أعلم"، أجبته بصوت يلفه حزن عميق.

وفي هدوء اللحظة، أخبرني عن دوره ودور والده في التحقيق بحادث القطار، الذي أظلم أيامي ليومين كاملين، وأشار إلى شجاعتي قائلاً بإعجاب "أنت بطل يا عمر، عدت لوحدك دون مساعدة أحد". قلت له إن سامر، صديقي، كان له دور في نجاتي، لولاه لكنت قد مت. أجاب خالد ببعض الجدية، مُبينًا أنني الناجي الوحيد في تلك المأساة.

وجودي في ذلك المكان أصبح خليطًا من الذهول والحيرة، كل لحظة تقدم فيها خالد خطوة إلى الأمام، يكشف لي عن جزءٍ آخر من القصة. ساعدني على النهوض، قادني إلى الخارج وأجلسني بجواره. ثم بدأ يُعدني لشيء قد يزلزل أركاني، قال لي بنبرة جادة تملؤها الرأفة "يا عمر، اسمي خالد وسوف أقول لك شيء أريدك أن تتمالك نفسك له.

أنت قوي يا عمر وتتحمل كل شيء". من نبرته، عرفت أن هناك خبرًا جللًا ينتظرني، شيئًا يمكن أن يغير كل ما أعرفه فأجبته بصوت متهدج، "ماذا يوجد؟"

وقف أمامي، نظرات الأسى تختلط بتلك الثبات التي يحاول أن يغلف بها ملامحه. "والدتك توفيت بسبب صدمة اختفائك، ظنت أنك ميت،" كانت تلك الكلمات كالصواعق تخترق صميم قلبي. وقبل أن أستوعب مَويل النفس الأولى، رمى على أذنيّ بالحقيقة الثانية، "والدك توفي إثر حادث أليم". صرخت بتلقائية رافضاً تقبل الحقيقة، كان الألم يتخطى كل حدود الزمان، "كيف ليحدث هذا في يومين؟! أنت تكذب!" وفي محاولة يائسة بترتيب الأفكار المشتتة بدأت أبكي.

ضمني بقوة محاولاً تمرير بعض الأمان في وسط الفوضى، "يا عمر، اهدأ اهدأ، أنت مختفي منذ ٢٥ سنة".

كانت تلك الاعترافات تنسل من فمه كحبات رمل تسربت من يدي رجل حيران على شاطئ الزمن، هززت رأسي بنفي مستحيل، فكيف يُعقل ذلك وأنا لم أزل بعمر الطفولة الذي فقدته للتو؟! ظننت أن مرآة الواقع قد شوهت، لا بد أن هذه خدعة من خدع الزمن القاسية. "انظر إلى وجهي، أنا لازلت بعمري!". ولكن خالد تحدّث بنبرة حانية متفهمة، "أعلم يا عمر، لكنك ذهبت لعالم غير منطقي آخر لا نعلم كيف يمشي به الوقت."

في ذلك الأرق من الحقيقة التي لا مفر منها، خبطت على الكرسي بيأس، "مستحيل، أنت تكذب!"، وهرولت خارج المستشفى كتائه بخطوات تشق طريقها في شرايين القدر. ركضت في الشوارع، أبحث عن ضالة قلبي بين وجوه الأحياء، حتى وجدت سيارة عابرة تستمع إلى نداء عجلتي وتقبل بنقلي سريعاً إلى مكان منزلي.

عند الوصول، قوة الألم زادت من قوة يدي التي اخترقت هدوء الباب بدقات عاجلة. ومع الرد بظهور رجل غريب، ضاعت بيننا تقاسيم التعارف المعتادة. حين عرفته بعائلتي "عائلة مسعود"، وما أن استوعب الغريب أنني "ولدهم المفقود" حتى شاطرني الذهول بكلمات تقطر دهشة "يا الهي، أنت على قيد الحياة!"

بقلبي المكلوم، كررت السؤال الذي مزقني، "أين عائلتي؟" ولكن الجواب الذي ارتدى معطف الأسف جعل واقعي يتهاوى، "اعتذر عن قولي هذا لكن، عائلتك توفوا جميعاً". خطواتي التي تراجعت للخلف جعلت من جسدي صنماً يعانق الدرج، وجلست على الرصيف، وأجهشت بالبكاء. الدموع كانت خير رفيق في هذه اللحظة، فمع كل قطرة تسقط، تسقط معها حقبة من الزمن على الأرض القاسية.

في وسط الضياع والألم، عاد نفس الرجل الذي تحدث إلي في المستشفى مرة أخرى، مد يده نحوي كملاذ في بحر اليأس الذي كنت أغرق فيه. "يا عمر، تعال معي، أريد أن أريك شيئًا." لم أعرف لماذا، ولكن شيئًا ما داخلي حثني على مسح دموعي والمشي معه.

فتح لي باب سيارته وصعدت بدون أدنى فكرة عما يخبئه القدر لي هذه المرة.

سقنا الصمت حينما اخترق الطريق إلى المقبرة، وبحركة واحدة دون تردد، دخلنا هذا المكان الصامت الذي يحمل ذكريات الأرواح التي رحلت.

"لماذا نحن هنا؟" سألته بنبرة مخنوقة بالدموع.

"عمر، والدك وهو على فراش الموت كتب وصية لو كنت على قيد الحياة أن أخذك بيدي إلى قبره وقبر والدتك." تلك الكلمات، كأنها أطلقت العنان للألم المكبوت داخلي، فوقعت على الأرض. مسك بي قائلاً، "هيا يا عمر، لندعي لوالديك بالرحمة. هذا هو قبرهم."

احتضنت قطعة الأرض التي تحتضنهم الآن، أبكي وأتحدث إليهم كأن الزمن لم يفرق بيننا أبدًا، كأنهم يمكن أن يسمعوني من تحت طبقات الأرض. بقيت هكذا، رأسي على ترابهم لمدة خمس دقائق، رويت ترابهم بدموعي، تلك الدموع التي كانت تمثل خلاصة ألم وفراق وأمل مفقود.

عندما استعدت قوتي للنهوض، نظرت إلى الشخص الذي جاء بي إلى هذا المكان، وبصوت محمل بالأمل واليأس معًا، سألته إذا كان يمكنني طلب طلب. مسك كتفي برفق وقال بصوت مطمئن، "بالتأكيد يا عمر." مسحت دموعي ونهضت، "هيا، قل لي ما هو الطلب؟"

في تلك اللحظة، شعرت بالحاجة إلى الانتماء، إلى شيء يذكرني بمن كنت ومن يمكن أن أكون.

"تعال معي." ركبنا بالسيارة وطلبت منه أن يمشي كما أقول له، محددًا بذلك مسارنا نحو الوجهة التي رأيت أنها قد تعيد إليّ بعض ما فات من زمن، أو ربما تساعدني على الاستمرار في مواجهة زمن لم يعد يعني لي ما كان يعنيه من قبل.

خرجت من السيارة وبدأ الشخص الذي أتى بي يتبعني بهدوء، راغبًا في معرفة ما سأقدم عليه. قدماي قادتاني إلى مبنى أُلِفَ كغلاف كتاب قديم، الذكريات تتراكض في ذهني بكل خطوة أصعد بها الأدراج.

وصلت أخيرًا أمام باب المنزل، قلبي يدق بقوة العواصف ويدي تطرق الباب بتردد.

الباب فُتح ليتجلى أمامي رجل كبير في السن، نظراته ملؤها الهدوء والرصانة. "مرحبًا"، كلمتي البسيطة التي شقت طريقها من بين ثنايا قلبي المثقل. "أهلا بك، كيف يمكنني مساعدتك؟"، كانت كلماته مفعمة بالود والاستعداد للمساعدة.

"هل سارة هنا؟"، سألته بصوت مرتجف، لا يكاد يكون مسموعًا. لم أستطع تمالك نفسي بعد ذلك، الدموع بدأت في الانهمار مرة أخرى ويدي تغطي فمي وأنا أصارحه بهويتي، "أنا عمر مسعود..."

صدمة تلونت على ملامح الرجل، كأنه يظن نفسه في مواجهة حلم، "أنت عمر؟"، تقدم مني خطوة بخطوة ثم ضمني إلى صدره قائلًا بصوت يحمل بين طياته كل الحنين والدهشة، "يا حبيبي، أنت لازلت صغيرًا، كيف ذلك؟"، "أرجوك يا عمي، أين سارة؟"، الاستفسار تهاطل من بين دموعي التي لم تعد تعرف طريقًا للتوقف.

ذهب الرجل إلى الباب، وصرخ باسم سارة بكل قوته. فتاة في بدايات الثلاثينات جاءت متسائلة، ولكن قبل أن تكمل كلامها، وقعت عيناها عليّ.

الدموع بدأت في الانسكاب من عينيها وهي تهمس، "عمر؟"، قبل أن تركض نحوي وتضمني بقوة.

"أين سارة؟"، كررت السؤال في عناء. "يا عمر، أنا سارة"، كانت كلماتها كالصدمة الثانية التي تعرضت لها اليوم. "يا سارة، منذ يومين كنا صغار، كيف أنتِ بهذا العمر وكيف كبرتِ؟"، الحيرة والألم عبأ كلماتي. "يا حبيبي، أنت منذ ٢٥ سنة مختفي، نبحث عنك منذ ذلك الوقت..."

كيف لشكلي أن لم يتغير، سارة أجابت بكلمات مؤثرة، "أجل، أنت لازلت جميلي الذي بقي في عمر الثلاث عشرة عامًا..."، "سارة؟"، صوتي مليء بالحسرة والعجب. "أجل يا جميلي، أنا سارة..."، ضممتها إليّ، الدموع تغسل وجنتيَّ وأنا أصرخ بفرحة مريرة، "يا سارة، الحمد لله أنك الشيء الوحيد الذي بقي لي في هذا العالم!"

وقفت تنظر إليّ، عيناها تحكي قصصًا لم تُروَ من قبل، "ستبقى معي ولن تختفي عن عيني للأبد... اتعلم يا عمر، منذ ٢٥ سنة وأنا احتفظ بوعدي لك، سنبقى معًا يا عمر.." في ذلك اللحظة، كل شيء توقف، الزمن، الألم، الحيرة، ليبقى الحب الذي تجدد عهده بيننا.

جاء ذلك الشخص الذي لم يفارق جانبي منذ لحظاتي الأولى في المستشفى، وقف هناك يراقب لحظات العاطفة المنسكبة بيني وبين سارة. بسؤال غريب صدر منه، "هل ستتبنيه؟"، نظرت إليه بشيء من الصدمة والذهول، لم تستطع كلماتي الخروج إلا بتلعثم، "يا رجل، هذه حبيبتي!"

ابتسامة عابرة رسمت على وجهه استطرد بها قائلاً، "الفرق بينكما 25 سنة."

"بالشكل فقط، صدقني، بالشكل. العمر ليس إلا رقم، أنا وسارة، منذ يومين كنا بنفس العمر."

كلماتي كانت محاولة لتجسير الغرابة التي تكمن في وضعنا الحالي. سارة، بخطوات ناعمة، اقتربت مني وامسكت رأسي، ومنحتني قبلة رقيقة قائلة بمرح خفي، "وماذا الآن؟ هل ستنادي لي حبيبتي أو أمي؟" ضحكت بيني وبين نفسي، ولكن الذكرى المؤلمة لوالدتي ووالدي اندلعت كبركان مخملي من ألم يكاد لا يطاق.

"والدتي توفيت دون أن تراني، ووالدي أيضًا..." كانت تلك الكلمات كل ما استطعت أن أقوله قبل أن تتساقط دموعي. سارة، بكل حنان العالم، ضمتني وقالت، "صدقني إنهم يرونك وهم فرحون جدًا أنك بخير. لا تحزن يا حبيبي." توقفت للحظة وأضافت، "أتعلم، والدتك وأنا صغيرة، ماذا قالت لي قبل أن تتوفى؟" نظرت إليها بعيون متسائلة، "ماذا قالت؟"

"وصتني بك عندما تعود، ووالدك نفس الشيء. إنهم يحبوني كثيرًا وأيضًا يحبونك يا حبيبي. لا تحزن، هم يشعرون بك الآن." كلماتها كانت كبلسم على جروحي النازفة، وفي تلك اللحظة، نظرت إلى عيون سارة وضممتها بكل قوتي. في عناقنا ذاك، أدركت أن الحب، مهما كانت تعقيداته، يحمل دائمًا رسائل الراحة والأمل.

عمر، بطل قصتنا، خطى عبر أروقة الزمن بخطوات ثقيلة، حاملاً معه قصة لا مثيل لها. قبل يومين فقط، كان يعيش حياته بشكل طبيعي حتى اكتشف حقيقة صاعقة؛ لقد كان مفقودًا لمدة خمسة وعشرين عامًا. الأمر لم يتوقف عند هذا الحد. فقد فقد سامر، صديقه المقرب، وهو الألم الذي أقض مضجعه. بعد عودته إلى عالمه الأصلي، اكتشف حقيقة أكثر إيلامًا؛ والده ووالدته قد توفيا في غيابه. الحياة لم تكن كريمة مع عمر، فقد أسالت منه الدموع دون رحمة، إلا أن القدر كان لديه بعض اللطف المتبقي له، وهذا اللطف كان في صورة سارة.

سارة، التي بدت كأنها ومضة نور في لياليه المظلمة، أصبحت له بمثابة العائلة، الحب، وكل شيء في الوقت ذاته. عندما اجتمعت سارة وعمر مجددًا، لم يكن اجتماعهما عاديًا؛ فقد جمع بين قلبين كانا على مر السنين او يومين بالنسبة لعمر يبحثان عن ملاذ في بعضهما. اللحظة التي التقيا فيها حفرت في الذاكرة كأنها حلم زماني أبدي. وهنا يطرح السؤال، أي دور سيلعبه عمر الآن؟ هل سينادي سارة بـ"أمي"، متبنيًا طابع العائلة الذي فقده، أم بـ"حبيبتي"، تعبيرًا عن المشاعر العميقة التي تربطهما؟

وسمر، الاسم الذي في قلب هذا الوعد بين سارة وعمر، يظل لغزًا يحمل احتمالات متعددة. هل ستتحقق الأمنية بظهور سمر، تلك الفتاة التي ربما تصبح رمزًا لمعجزة حياتهم، أم أن عمر نفسه سيتخذ خطوات ليملأ الفراغ الذي تركه القدر، ويكون بنفسه ذلك التغيير؟

الحقيقة هي أن حياتنا مليئة بالغموض والتحديات الغير متوقعة. كما عايش عمر تلك العقبات التي ظلت تظهر أمامه واحدة تلو الأخرى، نحن كذلك نجد في طريقنا تحديات قد تبدو في بعض الأحيان جبالاً لا يمكن تخطيها. ولكن، كما في قصة عمر، هناك دائمًا شعاع أمل يلوح في الأفق، حتى في أحلك اللحظات.

في الختام، لا يمكننا إلا أن نشعر بالرضا والفرح بأن أمنية عمر وسارة قد تحققت. اجتماعهما يعد دليلاً قويًا على أن الأمل، الحب، والعزيمة يمكنها أن تتغلب على أقسى الصعاب. وقد توجت قصتهم بلقاء جمع بين القلوب قبل الأرواح، معلنة أن ما بدأ كحلم غامض أصبح في النهاية واقعًا يفوق كل التوقعات.

النهايةُ.